

كيف نبهوا الفكر العربي في علم الطب؟

للدكتور شوكت الشطي

وقد رافق احتلال العثمانيين للبلاد العربية بدء انحطاط فيها حتى عادت سيرتها العلمية منبثقة من قوة التسلسل ومنبعثة من تاريخها القديم فلم ينبغ في القرن الخامس عشر من بلاد الشام رجل أحدث عملا علميا عظيما (1) .

استمر الانحطاط في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فلا جديد ولا تجديد الا النظر في قضايا قديمة لاكتها الالسن وقدمت في صدها آراء تستند الى نقل ونصوص لا الى بحث وفحوص ، فلا ابداع ولا اختراع والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية . وكان يحكم البلاد العربية اقطاعيون همهم جمع ضريبة تفرضها الحكومة المركزية ولكن على الرغم من الانحطاط المحسوس في حركة العقول فقد كان في بلاد الشام علماء ممتازون وحتى عالمت نابغات (2) .

ان العثمانيين امرء اترك تسموا باسم مؤسس سلالتهم عثمان الاول فتولوا السلطة والسلطان ما بين 1326 - 1516 م في قسم من بلاد اوربا وكثير من بلاد آسيا وافريقية وجميع البلاد العربية بمشرقها ومغربها ثم تولوا الخلافة على المسلمين في مختلف الديار حتى سنة 1916 . وقد اجلوا اثر انتهاء الحرب العالمية الاولى عن البلاد العربية . وقد حكم العثمانيون في جملة ما حكموا البلاد العربية مدة تقرب من ستة قرون . فكيف كان حال الطب في تلك الحقبة من الزمن .

ويحسن بهذه المناسبة ان نبين اختلاف الحال بين القرن التاسع عشر والقرون التي سبقته . فقد احتل العثمانيون البلاد العربية وكان الطب العالمي علما عربيا يفاخر به العرب وتعج بلادهم بملاجئهم ومشافيه ويفخر الغرب بنقله عنهم واقتباسه منهم والتلمذ عليهم .

(1) ذكر المقدسي ان اهل الدولة العثمانية كانوا يولون المدارس في الشام احدا من ابناء العرب زاعمين ان العلماء في العرب كثيرون وانهم ان ولوا عربيا كثر الطالبون وعجزوا عن ارضائهم وحصر الترك عنايتهم بالاستانة .

(2) بينهن عائشة الباعونية عاشت في الشام وتوفيت في القاهرة سنة 1516 م . وفاطمة بنت عبد القادر تريمزان عاشت بين سنة 1477 و 1558 م في حلب واليها انتهت الرياسة العلمية في زمنها .

لقد برز في العلوم والفنون بضعة افراد في بلاد الشام وعلى رأسهم داود الانطاكي وهو رحالة ضير شغف بقراءة كتب الطب والتأليف فيها ، اشتهر طبه وكتابه « تذكرة اولي الاباب والجامع للمعجب العجاب » وهو مختصر جامع لفنون الطب ، ولا بد لنا من التوقف عند هذا المؤلف وكتابه الذي ظل المرجع المعول عليه حتى طلائع النهضة الطبية في القرن التاسع عشر .

ولد داود في انطاكية سنة 950 هـ - 1544 م وتوفي سنة 1008 هـ - 1599 م . جاء عنه بقلم مؤرخ عصره شهاب الدين محمود الخفاجي في كتابه « ربحانة الاباب وزهرة الحياة الدنيا » ما نقله بالحرف الواحد كتمودج عن أدب ذلك العصر ولفته : « الرئيس داود الحكيم ضير ، بالفضل بصير ، اذا جس نبضا لتشخيص مرض عرض ، أظهر من أعراض الجواهر كل عرض ، يفتن الاسماع والابصار ويضطرب بجس النبض ما لا يطربه جس الاوتار ، له في كل علم ، سهم مصيب ، كثر كلام الناس في اعتقاده ، ونقل عنه رشح قطرات من خفي الحاده ثم لما كثر اللغظ فيه ارتحل للبيت العتيق ، فطافت به المنية من كل فج عبق فمضى نجبه ولقي ربه » (1) .

وقد طبعت تذكرته هذه لأول مرة في سنة 1838 م ، 1254 هـ ، ثم أعيد طبعا بضع مرات وعلق عليها الكثيرون (2)

ولقد كان القرن الثامن عشر تنمة ما سبقه من ضعف في بطن الحركة العلمية فاقترصر الطب على وجود متطبين لا يتجاوز مدى معارفهم حد بعض الحقائق الاساسية التي كانوا يتلقونها شفاهيا وكان اكثرها تقليديا وتوسع بعض منهم في معلوماته الطبية فقرأ الكتب القديمة أو كتاب داود الانطاكي . ولم يكن في ذلك العهد من يستحق ان يطلق عليه لقب طبيب حتى في المدن الكبرى ، أما في المدن الصغرى والقرى فكان يتعاطى المهنة الطبية أشخاص توارثوها عن الآباء والاجداد يستهدون فيها بعض التجارب والادوية وكان من بينهم نسوة يصفن العقاقير ويدوين العيون (3) وقد وجد عدا اولئك ممارسون جوالون ، كان لبعضهم خبرة في خلخ الاسنان واجراء عملية الحصة والساد (كاتاراك) . وكان يعول في الجراحة على الحلاقين الذين كانوا يتعاطون ايضا الحجامه والفسد وكان للطب البدوي (4) الذي يعتمد على الكي والادوية النباتية شأن عظيم وكانت هناك وصفات يعتمدها الناس في المدن والقرى منها معالجة

(1) وله تأليف منها شرح قصيدة ابن سينا في الروح وكتاب « الدرّة المنتخبة » فيما صح من الادوية المجرية وكتاب « نزهة الازهان ، في اصلاح الابدان » ومنها التذكرة الصغرى والتذكرة الكبرى في الطب وهذا الكتاب هو اشهر مؤلفات الانطاكي واكثرها ذبوعا ذكر فيه ما روي في كتب اطباء اليونان والعرب مع الزيادة والتعديل ومسيرة طرق المعالجة عند اهل زمانه . يروي الباحث في التذكرة معلومات طبية ذات فائدة كبرى والى جانبها معلومات اخرى مستبدة من روح عصره وبعض مجرياتهم الخرافية سحجة ومستهجنة لا يسع القارئ الا التعجب من اثباتها الى جانب الآراء الصحيحة ولا شك ان لذلك اسبابا قد يكون من بينها الانسجام والتجاوب مع ما يستشفى به الناس حينها من وسائل نفسانية .

(2) وكان من اكثر الباحثين في التذكرة والمتعمقين بموضوعاتها الدكتور رمزي مفتاح الذي بعث التذكرة بعنا جديدا بكتابه النفيس المسمى « احياء التذكرة » فجعله قنطرة بديعة تصل بين الطب القديم والطب الحديث .

(3) اشتهرت من بينهن في بغداد فرحة خاتون فاستشفى على يديها عدد كبير من سكان هذا البلد .

(4) ما من احد عرف اهل البادية الا رأى عندهم من اساليب المعالجة ما يحلو ذكره من فائدة ، يعالج البدو الجروح النازفة بصب مغلى السمن عليها ثم يغمسون قطنة في السمن البارد ويضعونها على الجرح الى ان يبرأ واذا كان الجرح صغيرا رشوا عليه الملح او بن القهوة ، أما اذا كان الجرح كبيرا وواتعا في طرف وكان النزف غزيرا استعانتوا على ارقائه بربط العضو واذا دخلت رصاصة في يد أحدهم او رجله ولم يستطع طبيهيم اخراجها بسكين او مسلة حفر حفرة في الارض وأشعل فيها نارا شديدة ثم أخرج منها النار وأضجع المصاب في وضع يلامس فيه العضو الذي فيه الرصاص تراب الحفرة فيخرج الدم من الجرح ثم تخرج الرصاصة ثم يصب الدبس او الزيت على الجرح ليلثم .

معمم بعمامة جبيلة ويرتدى جبة حريرية واسمعة
يصغى بخشوع الى السيرة النبوية .

ولقد اشرف بنفسه على خطة تضمن نشر العلم
في مصر فبلغ عدد العلماء الذين رافقوا اسطول الغزو
175 عالما في مختلف العلوم وكان في مستودعاته مئات
الصاديق مليئة بالكتب والاجهزة مما يكفى لتأسيس
جامعة كاملة وكان من بين العلماء الذين صحبوه اطباء
وفلكيون وعلماء طبيعيين (2) . ولقد وضع مرافقوه
من العلماء بتشويق منه وبالتآزر مع المواطنين معاجم
عربية فرنسية وانشاوا صحفا جديدة وقاموا بدراسات
عن الطاعون الشرقي والتراخوما والتهابات العيون .

وقد جلب نابليون معه مطبعة عربية اقامها في
القاهرة وكانت هذه المطبعة ثالث مطبعة وجدت في
بلاد العرب (3) .

لقد ايقظت حملة نابليون على مصر الانكسار
فنبهت الى سبات الجهل الذي كان مخيما على البلاد
فما كاد يطل القرن التاسع عشر حتى بدت تباشير
الحركة العلمية في الديار المصرية في ايام محمد علي
الكبير واخذ قبس من نورها يشع في بلاد الشام ولكن
انى لذلك القبس ان يدد ظلمات الجهل ويقطع دابر
الدجالين والمنجمين والسحرة والمشعوذين ويحارب
الاعتماد عليهم من ابناء الشعب ما لم تنشأ بيوت العلم
ويؤتى بالاطباء ، ذلك ما فعله محمد علي فجلب
الاطباء من اوربا وعهد اليهم العناية بصحة جنوده
وكان على راسهم ومن المعهم الطبيب الفرنسي كلوت
بك الذي استدعي الى مصر سنة 1825 ليتولسى
رئاسة اطباء الجيش المصري فاشار على بوزاري
طبيب محمد علي باتباع القانون الفرنسي في أمر الاطباء

الكلب بكي محل العضة وبالثوم اكلا وضامادا
وبالحلثيت شربا وضامادا ويعزل العضوض اربعين
يوما بشرط أن لا ينظر الماء ولا اللون الاحمر ومنها
معالجة الزهري بتبخير المريض بالزئبق مع بعض
عقاقير منها جوز السرور ومنها علاج الرمد بقطرة من
تفاح وعلاج السرطان بالكي بالحديد المحمى ومعالجة
الرثية بالضرب بورق القريض او بلسع النحل في محل
الام ومعالجة داء الحفر بالليمون الحامض ومعالجة
الديدان ببزر القرع وبمغلى قشر شجر الرمان شربا
وبأكل حب الاس والترمس والكربن ومعالجة لدغ
الثعبان والمقرب بتدمية مكان العضة ومصه مع
الزيت فوق مكان اللدغ ثم الكي بالنار على محل اللدغ
ومعالجة البرداء الحادة بمغلى أوراق الصفصاف
والمزمنة بأكل الطحال وبالاخص طحال التنفذ ومعالجة
الجذري بمنقوع قشور الجذري في حليب مرضعة
لبنت ومعالجة الحصبة بمغلى النوفر والعنساب
والزهورات وبالدبس العنبي ومعالجة السعال
الديكى برب السوس وشراب الرمان وبالعسل ومغلى
التين او منقوعه المائي وبشرب ما يرشع في حفرة
تصنع في قرص اللفت وتها بالسكر (1) .

ولقد بدأت في غرة القرن التاسع عشر تباشير
العلوم الرياضية والطبيعية تقبل على البلاد العربية
خاصة مصر وسوريا وذلك على اثر غزوة نابليون
لها قريبا القرن التاسع عشر ما بين 1798 و 1799
فقد تركت تلك الغزوة اثرا نبه البلاد العربية الى قيمة
العلم ذلك لان نابليون صحب معه العلماء ووسائل
التعليم ورغب في اقامة علاقات ودية مع اهل البلاد
بلغت به الى مباشرة مراسيمه - فرمانات - باسم
الله الرحمن الرحيم واختياره لنفسه لقب الشيخ
الكبير والجلوس ليلة عيد المولد في الجامع الازهر وهو

(1) ومنها معالجة الخناق بشراب التوت ودهن الورد أو دهن الخطمية واللبخات كما يطلى حلسق
الطفل بدهن الورد ومنها معالجة النزلة الصدرية بالحجامة من الظهر وبمغلى الزهورات مع ماء
الشعير ، ومنها معالجة الهیضة بالهقط وهو اللبن المجفف والرمان الحامض المشوي بقشره كما يسقى
المصاب خليط الثوم بالماء ويوقف الاسهال بدبس الرمان والسماق والشاي الكثيف والخشخاش ومنها معالجة
انيرقان بان يعصر في انف المصاب قثاء الحمار ومنها معالجة البحة بأكل الكرب نيتا ومطبوخا .

(2) اتفقوا على ان لا تفسير لاصل العالم الا بما ينسجم مع القوانين الطبيعية دون قوة خارقة وكان
نابليون يتردد في قبول رأيهم ويجيبهم : «قولوا ما تشاؤون ولكن ما الذي خلق هذه الاجرام في الفضاء ؟» .

(3) اما المطبعة الاولى فوجدت في لبنان في القرن السابع عشر وكذلك الثانية في قرية خنشارة سنة

وبانشاء مجلس للصحة يكون بوزاري رئيسا له (1) .

ولقد اشتهر كلوت بتوفيته في مكافحة الطاعون في مصر (2) ، كما استعمل التطعيم ضد الجذري فقل انتشاره في القطر المصري (3) . وخطر له أن ينشئ مدرسة طبية بجانب المستشفى المبحوث عنه فعرض الامر على مسامح محمد على فاستصوبه وامره أن يشرع فيه ثم انشئت مدرسة طبية بأبي زعبل . وما لبثت أن اعترضته صعوبة اللغة فالاساتذة الذين عزم على استخدامهم لا يعرفون العربية والتلاميذ لا يعرفون اللغة الاجنبية فأتام مترجمين بين المعلمين والمتعلمين ثم اعترضته صعوبة ثانية جاءت من الزعم بخالفه الدين الاسلامي للتشريح فتباحث مع رجاله فسكتوا عن التشريح . ولما تغلب كلوت على كل المصاعب عين مديرا للمدرسة الطبية في مطلع سنة 1827 فاختر لها اساتذة من الفرنسيين والاطاليين .

ولقد سعى كلوت الى تعريب الكلية فاختر اثني عشر تلميذا وسار بهم الى باريس ليعودوا اساتذة في كلية الطب فصحت فراسته فيهم وعادوا الى مصر مزودين بالاختصاص فكانوا اركان تعليم الطب ونهضته في مصر .

وفي سنة 1837 نقلت المدرسة الطبية من ابي زعبل الى القاهرة (4) وفتحت مدرسة لتعليم القابلات في الولادة وانشئت مستشفيات كثيرة .

ولقد سحب كلوت ابراهيم باشا الى بلاد الشام فزار دمشق (5) وبيروت (6) وصيدا وعكا وجبنا وجبل الكرمل وتوجه الى الناصرة لما كان الطاعون فيها وزار نابلس وبيت المقدس وغزة وطبب المرضى وأبقى له في الشام ذكرا جميلا .

وصادف ان دعى كلوت بك وهو في بيروت لعيادة الامير بشير في سراي بيت الدين فتعرف فيها على بشارة جليخ وكان نبيها عارفا بجبله صناعات منها صناعة تصليح الساعات فمدف كلوت ساعة الى بشارة ليصلحها فصلحها واعادها اليه بعد أن نقش عليها اسم صاحبها كلوت واراد هذا ان يكافئه بالمال فاعتذر بآباء فسر منه وقال لبشارة علي بما تشتهي فقال يا سيدي هو ذا ولدي وحشاشة كبدى يوسف اضعه بين يديك راجيا أن تستصحه معك الى مصر ليتعلم الطب هناك فاستصوب كلوت هذا الرأي وعرضه على الامير بشير . ولما كان هذا الامير راغبا في تقدم بلاده تقدم الى الحكومة المصرية بواسطة

(1) وقد استبعد بوزاري المذكور في بادئ الامر من المجلس المقترح كلوت ، ولما لم تسر الامور في المجلس على ما يرام اسندت الى كلوت عضوية المجلس فأدخل فيه المنظمات الصحية الحديثة آنذاك واستعان به على اهل المفاسد الذين وقفوا لاعمال المجلس بالرصاد وعني بأحوال الجيش الصحية في السلم والحرب فأوجد مستشفى عسكريا ثم جعله عموميا لجميع المرضى فتكملت أعماله بالنجاح .

(2) كان يموت منه في جائحة سنة 1830 في القاهرة وحدها ألفا نفس كل يوم فقام هو وتلاميذته بمقاومة الطاعون ومعالجة المصابين به الى أن انتشعت غيوم الوباء فأنعم عزيز مصر على كلوت برتبة بك ثم فشا الطاعون سنة 1835 فنهض كلوت وثلاثة من الاطباء لمقاومته ومكث على هذه الحالة باذلا جهده ستة اشهر فأنعم عليه العزيز مرة ثانية وذلك برتبة جنرال ولم تكن تعطى لئله .

(3) كان يفتك سنويا بما يعادل ستين ألفا من الاطفال .

(4) ثم اتفقت المدرسة الطبية فعاد كلوت الى فرنسا وبقي فيها الى أن استدعي لاعادة فتحها فعاد الى القطر المصري وبقي فيه حتى سنة 1869 ثم رجع الى وطنه وتوفي سنة 1868 .

(5) وكان في حاشية ابراهيم باشا في الشام طبيبان كان لهما مهارة في الطب القديم وهما الشيخ علي شورى وولده الشيخ عبد الرحمن فدرسوا في الشام بدمشق وطببا فيها وكان عبد الرحمن مجازا من القصر العيني في القاهرة .

(6) وكان ذلك في عهد الامير بشير الشهابي الكبير الذي عرف عنه استعمال وسائل وقائية منها تعميمه لقاح الجذري ومباشرة ذلك بتطعيم عائلته كما استعمل في مكافحة الطاعون اساليب مجدية منها وضع المصاب في خيمة خارج قريته ومنع اهل بيته من ترك منزلهم مقدما لهم المساعدات اللازمة للعيش ومنع ايضا اهل القرية البويوة من ترك قريتهم وتصدير البضائع منها ومجيء اهل القرى المجاورة السلمية اليها وامره باتفال المحلات الموجودة على طرق القرى المصابة حتى يزول الداء منها . وكان لهذه التدابير اثرها في عدم انتشار الطاعون في لبنان .

ولقد قدم الى سنة 1842 طبيب انكليزي مع اول بعثة انكليزية سياسية وفدت الى حلب وبدأ داوي المرضى . وفي حدود سنة 1862 حضر الى حلب المستشرق الامريكي ورتبات وتعاطى مهنة الطب وبقي فيها مدة خمس سنين ثم سافر الى بيروت ليسهم في تأسيس فرع الطب في الكلية السورية الانجيلية . وكان الدكتور ورتبات في سني وجوده بحلب تد درس الطب لبعض المتشوقين لطلبه وتحصيله فعلمهم اياه وعلمهم علوما اخرى كالكيمياء والنباتات والحيوانات ومفردات الطب والاقرباذين والطبيعات وكان منهم الشيخ محمد فائز الكيالي والسيد بكري زبيدة والشيخ الافندي الملقب بالحكيم ، ونصري الحكيم ، والشيخ محمود السنكري ، والياهو حابير ثم تعاطى هؤلاء المهنة الطبية في بيوتهم واتخذوا فيها عياداتهم يعالجون المرضى ويصرفون لهم الادوية فافادوا كثيرا واستفادوا كسب عيشتهم وبقي منهم ائناس حتى عام 1920 (3) .

ولقد بدأت المنافسة بين جمعيات التبشير التي كانت تظهر الدعوة الى الايمان بالله وبيطسن مشجعوها تقاسم التركية العثمانية يوم ينتهي نزاع الرجل المريض واعني به دولة بني عثمان واذا تصر الامريكيون عملهم على بيروت الذي كانوا ينوون بده في دمشق على ما يقال (4) فان الفرنسيين كانوا متوغلين في دمشق وحلب ووجه الفريقان الهمة الى

كلوت بك ملتصبا منها ان تجيزه بارسال بعض الشباب اللبنايين الى مصر ليتعلموا فيها الطب فانتهى الامير خمسة شبان من دير القمر وكان في صحبتهم يوسف بن بشارة المذكور .

ولقد تدعمت في بلاد الشام اليقظة العلمية بالعلماء والمهندسين والاطباء والزراعيين الذين جلبهم معه ابراهيم باشا الى سوريا في حملته عليها سنة 1832 فاثروا في افكار الشعب ونهوا افراده الى ما هم عليه من تأخر وجهل وكان الاطباء يداوون جرحى الجيش ومرضاة والاهلين .

وفي سنة 1840 م اي بعد خروج ابراهيم باشا من ديار الشام ، سمع بدخول الرسائل الى البلاد السورية ومنها فلسطين فانتشرت فيها بعثات التبشير (1) من انجليزية وفرنسية وامريكية وغيرها تتخذ التطبيب وسيلة للتبشير حتى قل ان تجدارسالية بدون مدرسة او عيادة طبية على ان المبشرين الفرنسيين سبقوا المبشرين فقد بدأوا عملهم منذ القرن السابع عشر ونشطوا خاصة في القرن التاسع عشر بعد زوال حكم ابراهيم باشا من بلاد الشام . وكان التطبيب المجاني وتقديم العلاج من اهم عوامل التبشير التي قام بها الغربيون في بلادنا فبينما كانت الحكومة العثمانية تعجز عن حماية الحجاج كانت البلاد من عمان حتى تبوك ومدائن صالح عرضة لغزوات المبشرين باسم الطب كما كانت صحراء سوريا والحجاز مسرحا لهم (2) .

(1) ولا يجوز ان يعزب عن البال انه وجد في حقبة من هذا الزمن رهبان وقسس كانوا يقومون بالمعالجة في الدير فادوا خدمات انسانية عظيمة .

(2) وصال المبشرون وجالوا حتى في المدن وكانت بعثة راهبات مبشرات تطيب مجانا في مدخل سوق القطن قرب سوق مدحت باشا المعروف بالطريق القديم .

(3) ودليلا على ان هؤلاء المتطبيين الذين عالجوا المرضى وخدموا الطبابة في زمن قل فيه وجود الاطباء الماذونين لم يكونوا دجالين ولا جهلة . اذكر الشهادة الآتية التي كان منحهم اياها الدكتور ورتبات وهي صورة عن النسخة التي لا تزال محفوظة عند الدكتور محمد علي الحكيم حفيد الشيخ محمد الافندي كتبت بالعربي وفيما يلي نصها :

اني انا المحرر اسمي ادناه اشهد بان السيد محمد الافندي قرا على من الدروس الطبية علم التشريح والفيسيولوجيا والكيمياء وطالع معي ايضا المواد الطبية ، والاقرباذين ، وعلم النباتات واشهد ايضا بان معرفته العامة بهذه العلوم كانت حسنة ، حرر في 20 ايلول عام 1866 . واليك سيرة واحد منهم هو الشيخ ابراهيم الخلاصي ، قال فيه العلامة البيطار في تاريخه ما خلاصته : انتهت اليه رئاسة الطب في عصره ، وكان الخاص والعام معترفا بعمله وتقدره ، انفرد بمعرفة الداء من النبض والقارورة ، وللناس عنه حكايات معروفة ، وله مشاركة في بعض العلوم ، وشعر في سلك اللطافة منظوم ، توفي في اليوم السادس من شوال سنة 1255 هـ - 1838 م .

(4) يقال ان النية كانت متجهة الى تأسيس الجامعة الامريكية في دمشق في حي الميدان وان ظروف محلية حالت دون ذلك .

فتح المدارس ولم يكن من نتائجها استحداث كليتي الطب
الاميركية - المدرسة السورية الانجيلية - والفرنسية
- كلية الطب اليسوعية - فنصب بل وكليتي الطب
العثمانية في دمشق واستانبول .

ويعيد الباحثون كتفكهم عن هذه المنافسة ما
قاله فان ديك احد كبار مؤسسي الجامعة الاميركية
حينما كان في طريقه الى ترمية لبنانية لتأسيس مدرسة
فيها حيث لقيه صديق وسأله عن رحلته فقال : انني
ذهبت الى فتح مدرستين فقال الرجل ضاحكا : «الانكلي
مدرسة واحدة يا دكتور» فأجاب فانديك : «متى فتحت
مدرسة فان الجمعية الكاثوليكية ستفتح مدرسة
أخرى في نفس القرية» .

ويبدو لنا أن محمدا بن أحمد الاسكندراني (1)
هو احد متطبيي النصف الاخير من القرن التاسع عشر
في دمشق ومن اوائل الاطباء المتخرجين من مدرسة
طبية رسمية استنتجنا ذلك مما جاء في سيرته وما
لمسناه من علم غزير في مؤلفاته .

وقد جاء في مقدمة أحدها قوله : كنت منذ زالت
عني تمائم الطفولية ونيطت بي عمائم الرجولية ممن
شغف بتعاليم الطب ليالي وأياما وانهمك في دراسته
على قدر الطاقة سنين وأعواما فنيطت بي خدمة
العساكر البحرية في ثغر الاسكندرية المحمية وذلك
الى غاية سنة 1256 هـ - 1839 م وكنت اذ ذاك ببر

الشام فتشرفت بخدمة العساكر السلطانية الى غاية
1258 هـ - 1841 م ثم أقمت بدمشق الشام معتنيا
بداواة أهلها الامائل الاعلام .

وكان من بين الاطباء المتطبيين والاطباء
الرسميين الدكتور ميخائيل مشاقبة : 1800-1888 م
مؤلف كتاب «مشاهد العيان» (2) ، نشأ علامتنا في دير
القرم فتعلم القراءة والكتابة ثم سكن دمياط عند
اخواله من آل عنجوري وهناك مال الى دراسة
الرياضيات والموسيقى والفلك فلمع فيها . وقد أصيب
في شبابه بمرض اتعده خمسة اشهر متوالية فتألم
لذلك كثيرا واحب ان يتعلم صناعة الطب . كان يتلذذ
على كل طبيب أجنبي يأتي الى لبنان من بلاد الشام ،
وحينما زحفت الجيوش المصرية على بلاد الشام ،
سوريا ولبنان ، التحق مشاقبة بخدمة الامير بشير
واستأذن مولاه بوافقة الهيئة الطبية التي كانت
بالجيوش المصرية وعلى رأسها الطبيب المشهور
كلوت فذهب معها الى حمص ودمشق يطب جرحاها
ويعنتي بالذين أصيبوا بالطاعون الذي فتك بالحملة
فتكا ذريعا وتمصد سنة 1845 مصر وتتلذذ في المدرسة
الطبية المعروفة بقصر العيني بالقاهرة وواظب على
دروسها ومستشفياتها حتى نال لقب دكتور ثم عاد
الى دمشق . وكان الطبيب ميخائيل مشاقبة يمارس
مهنة الطب (3) .

(1) قال فيه أخونا الاستاذ جميل الشطي : «كان المترجم حكيما في كل شيء ، تنوعا فيما يأخذه من
المرضى ، يطبب الفقراء ويعطيهم العلاج مجانا توفي عقيما سنة 1306 - 1887 وكان طبيبا للحكومة
العثمانية في مستشفى الغرباء ودائرة البلدية مدة طويلة ، وكان يجتمع عنده بعض العلماء والوجهاء .
تخرج علي الاسكندراني عدد من الاطباء منهم عبدالرحمن شوري وعبد الفتاح كحالة فقد قرأ عليه
تانون ابن سينا وكان حافظا يحسن تشخيص الداء في وصف الدواء . وقد صنع المترجم رسالة في الهيضة
سماها : «الازهار المجنية في مداواة الهيضة الهندية» ، وهي رسالة لطيفة جاء في آخرها : ثم طبع هذه
الرسالة سنة 1292 هـ - 1870 م

(2) وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه من المراجع الصحيحة في تاريخ سوريا ولبنان في القرن
التاسع عشر .

(3) وصف الاستاذ جرجي زيدان الدكتور مشاقبة فقال : انه زاره في منزله بدمشق عام 1883
فشاهده عالما ذا هبة ووقار يجله الشيب ويلبس العمامة والحية وكان يتعصب لزيه الشرقي ، خدم
الدكتور مشاقبة وطنه العربي الكبير ثم كانت له جولات موفقة في حقول العمل لصالح ومواساة
المساكين والمحرومين وله كتب كثيرة في الدين والعلم والفلك والتاريخ وله رسالة في الالحن الموسيقية
العربية وقد أحب دمشق حبا عظيما فسكن فيها ينعم بظلالها وكان كثير النباهة والكياسة وشديد المهارة
في الأعمال اليدوية وعود يده اليسرى احكام العمل كاليمين فكان يضرب بها على العود فكانت له احسن
معين يوم فلج شطره الايمن وكان بينه وبين المرحوم علامة دمشق ومفتي الشام المرحوم محمود افندي
حمزة مذكرات في الرياضيات والمنطق وكذلك بينه وبين الامير عبد القادر الجزائري وكان حبيبا الى
جميع الولاة والرؤساء والاعيان وأهل العلم والفضل من سائر الملل عاش تسعاً وثمانين سنة عيشة صالحة
شغل اكثرها بعلاج انفس الناس وأجسامهم وكان صابرا في مرضه نحو 18 سنة الى أن اغمض عينيه في
دمشق في 8 تموز 1888 . وله من العمر 89 سنة .

الدكتور حسين عودة : هو أحد اولاد المتطبب مصطفى اغاعودة أوفده ابراهيم باشا لدراسة الطب في القصر العيني حاز شهادة الدكتوراة في الطب من المدرسة الطبية الخديوية سنة 1291 هـ 1872 م .

الطبيب سليمان الخوري : 1832 م — 1902 م برع في كثير من المعارف وحصل الطب أولا بنفسه ثم درسه على بعض الاطباء المصريين وفي سنة 1849 اوفد الباب العالي طبيا من قبله لامتحان الاطباء والجراحين والصيدالة في ولايات الاناضول وسوريا فلما وصل الى حمص لم يجد فيها من يحسن التطبيب سوى صاحب الترجمة فاعطاه اجازة بذلك وصدر امر سام من نظارة الداخلية سنة 1294 هـ — 1876 م يعترف به طبيا قانونيا (1) .

داوود ابو شعر : تخرج من كلية الطب الامريكية ببيروت سنة 1877 وضع كتابا في الطب جاء في تقريره انه كتاب بديع النسق لازم لجميع القراء على اختلاف طبقاتهم يبحث عن الصحة بعبارة بسيطة واضحة مع نصائح عديدة مؤيدة بدلائل الاختبار واتبعه بنشر مقالات طبية عديدة ثم وضع مع زميل له المتخرج ايضا من مدرسة الطب الامريكية في بيروت امين ابو خاطر كتابا آخر في الطب سماه كتاب « مغنى اللبيب عن الطبيب » .

الحافظ حسن شاويش 1871 — 1910 : هو خالنا حسن بن محمود بن حسن الشاويش من عائلة اشتهرت بالتصوف والتجارة نشأ في حجر والده الحافظ محمود آغا الشاويش فرباه تربية دينية أدت الى حفظه القرآن وتوسعه في علم الحديث .

اشتهر بين الناس بفضل علمه وأدبه وتواضعه كان متقنا للغات التركية والفارسية والفرنسية كما كان ذا اطلاع واسع على اللغة العربية وفقها وقد امله الى اتقانها بيئته العلمية ودراسته في الازهر الشريف .

ولقد قدرت سجلياه الخلقية في الاستانة واعجب علماءها بجمعه بين العلوم الدينية والكونية فاعلوا مكانته وصار الكثيرون من رجالات الدولة والدين يتقربون منه لينتفعوا من علمه ويستمعوا الى صوته الرخيم يرتل به القرآن الكريم على القراءات السبع احسن ترتيل وذلك عند افتتاح حلقات الدروس الدينية في جوامع القسطنطينية خاصة في شهر رمضان المبارك .

صلاح الدين القاسمي 1305 هـ — 1887 م — 1334 هـ — 1915 م : قال فيه محب الدين الخطيب ما ملخصه : في مكتب عنبر (2) اكتشفت معادن الخير في امثال صلاح الدين القاسمي وكان معلم العربية في شيخا تركيا أرسلوه ليعلم العربية في عاصمة العروبة (3) . دخل كلية الطب بعد دراسة ثانوية تعلم فيها

(1) سنت الدولة العلية سنة على كل طبيب تصد معالجة المرضى في بلادها ان يأتي الاستانة ويمتحن في مجلسها الطبي حتى اذا وجدت معارفه كافية في علم الطب وعمله اعطته البراءة السلطانية مؤذنة له بالتطبيب وقد ذهب الى الاستانة سنة 1843 كثيرون من الاطباء السوريين الذين درسوا الطب وامتحنوا الامتحان المطلوب فاعلوا من البراعة ما اهلهم لنوال الدبلومات السلطانية وهم الاطباء امين ابو خاطر واسكندر بارودي وجرجي باز و ابراهيم ثابت وسليم الجريديني وياخوس الحكيم و خليل خير الله وسليم داود واسعد سليم ويوسف سليم و ابراهيم صليبي و ابراهيم مطر وانطون نوفل وحبيب كحيل واسكندر مشاققة والفرد بابولاني وقد طبب الثلاثة الاخرون بدمشق نستنتج من ذلك ان الحكومة العثمانية شعرت بنقص الاطباء الرسميين في بلادها سمحت لكل من تعاطى الطب او تعلم الطب في مدارس اجنبية ان يثبت كفاءته في فحص يقدم الى المجلس الطبي فاذا نجح فيه سمح له بمعاونة مهنة الطب في البلاد العثمانية وعاد طبيا رسميا ويبدو ان عدد الذين تقدموا للفحص امام المجلس المذكور لم يكن كانيا لذلك اوفد الباب العالي طبيا من قبله لامتحان الاطباء والجراحين والصيدالة في ولايات الاناضول وسورية وكان من بين الناجحين في هذا الفحص طبينا المترجم .

(2) مدرسة ثانوية كانت الوحيدة في بلاد الشام في عهد السلطان عبد الحميد

(3) كانت العروبة يومئذ عنوانا لهدلول نسبة العرب منذ ألف سنة . في هذا الجو نشأ النابغة العبقري صلاح الدين القاسمي برعاية شقيقه الاكبر العلامة الشيخ جمال الدين القاسمي واخوان له في حلقة نورانية كانت تسمى حلقة الشيخ طاهر الجزائري انتهت بقيام «جمعية النهضة العربية» سنة 1324 هـ 1906 م وما بعدها كان الدكتور صلاح الدين القاسمي كاتم اسرارها .

في التعريف بابن النفيس الطبيب الدمشقي الذي كشف
الدورة الدموية الصغرى .

كلية الطب الفرنسية في بيروت : بدأ التدريس
فيها سنة 1883 باللغة الفرنسية فخرج منها عدد
كبير من الاطباء خدموا البلاد العربية حيث وجدوا
خاصة في لبنان خدمة عظيمة .

هذا واذا كانت كلية الطب اليسوعية لم تبدل
لغتها الفرنسية فان الابهاء اليسوعيين وهم من كبار
المسهمين في تأسيسها عوضوا عن اتخاذ اللغة العربية
لغة رسمية فيها بما اوجدوه من معاجم عربية ومعاجم
عربية اعجمية عديدة وبما طبعوه من مخطوطات
عربية فأسدوا بذلك للتراث العربي وللغة العربية
خدمة كبرى .

كلية الطب العثمانية بدمشق (1) ، باشرت
عملها في دمشق 1903 واستمرت حتى سنة 1918
وتخرج منها 110 اطباء و 152 صيدليا عمل نفر قليل
منهم في الاناضول بينما عمل الباقون في البلاد العربية
خاصة بلاد الشام منها . وقد نقلت كلية الطب العثمانية
ابان الحرب الكبرى الى بيروت حيث انتفعت من
المدرسة الطبية اليسوعية واستعملت وسائلها الفنية
فانتسب اليها عدد كبير من شباب لبنان ، بعضهم
لدراسة الطب وبعضهم للتخلص من الخدمة العسكرية
وكان لنا من بين هؤلاء صديق استطاع بفضل براعته
في الادب الفرنسي اجتياز بعض الفحوص بسهولة
فأثقت منها درس النباتات الطبية وكان لا يعلم من ذلك
الا القليل وقد سأله استاذ النبات آنذاك اسماعيل
حقي عن الورد فسرد له كل ما جاء في الادب الفرنسي
عنه وكان الاستاذ التركي طبيب القلب ومولعا بالادب
الفرنسي فأخذ بما حدث ولم ينتبه الى سروده الا بعد
حين فقال للطالب هل لك ان تحدثني عن فائدة طبية
للورد فأجابه الطالب : يستعمل ماؤه منشطا ويعرف
بماء الورد . ولم ينجح الطالب المذكور ببراعته الادبية
في اللغة الفرنسية من مادة النبات الطبي فحسب بل
كان الاستاذ المذكور شفيعا له في باقي المواد وقد تم
له النجاح في اكثرها .

تلك هي سيرة ملخصة عن حالة الطب في مشرق
البلاد العربية في حكم الدولة العثمانية فما هو حاله
في مغربها : كان الطب في المغرب العربي كمشرقه

التركية والفارسية والفرنسية ومبادئ العلوم
الكونية الى جانب ما كان يتلقى من بيته من الدين
وعلوم العربية نال شهادة دكتور في الطب سنة 1914
ثم كان له نشاط علمي وقومي وأدبي تدل على ذلك
محاضراته العديدة ومقالاته الكثيرة عن العلم
والاجتماع والقومية في الامم وكان من أوائل من نبهوا
الى الخطر الصهيوني كما تناول أسلوب المنفلوطي
بالنقد في دراسة طويلة سماها نظرة في النظرات نظم
الشعر في صباح المبكر جمع آثاره اخوه المرحوم
الدكتور مسلم القاسمي ، وقد كان يرى فيه قدوته
ومثله الاعلى ، ولكن البنية عاجلته في
السنة التي نال فيها شهادة الطب . توفي صلاح الدين
القاسمي في الحجاز عام 1334 - 1916 ولقد عاش
عقبيا سابقا لسنة منذ امسكت انامله القلم ليبر
به عما في نفسه من اخلاص للعرب ولغتهم وعلومهم
وللقومية العربية ودعوة لتأسيس دولة عربية .

ولقد آن لنا اتماها للبحث أن نشير بكلمة عابرة
الى كليات الطب في البلاد العثمانية وعن أسهامها
بالنهضة الطبية في البلاد العربية اسهاما تختلف
درجاته من كلية الى أخرى مبتدئين بـ :

كلية الطب العثمانية بالاستانة وكان من الذين
تعلموا الطب ثم علموا فن التشريح فيها :

الدكتور يوسف الرامي المولود في فالوفا سنة
1855 والمتوفى في سنة الفيل سنة 1916 . وقد وضع
الدكتور رامي اكثر المصطلحات العلمية التي كانت
مستعملة في كلية الاستانة وقد اقتبسها من المصطلحات
العربية . وقد تخرج من كليتي الاستانة الطبية
والعسكرية عدد كبير من الاطباء السوريين .

كلية الطب الامريكية في بيروت : أسست سنة
1866 وبدأ التدريس في فرعها الطبي سنة 1867
باللغة العربية واستمر كذلك خمس عشرة سنة ثم
استبدلت باللغة الانجليزية وقد ادى المتخرجون منها
خدمات جلى ولعوا في جميع الميادين وكان من بينهم
زعيم سياسي واجتماعي كبير هو الدكتور عبد الرحمن
الشهبندر الذي اغتالته يد آثيمة فحرمت بلاد العرب
من حنكته وعلمه وواسع خبرته وفيها تعلم وعلوم
الدكتور سامي الحداد وقد تميز عن أقرانه بخدمة
التراث العربي والكشف عن كنوزه وذخائره واسهامه

(1) استطاع بعض رجال الفكر العربي ان يفتنوا الحكومة العثمانية بتأسيس كلية طبية بدمشق
تابعة للجامعة العثمانية فأصدر السلطان عبد الحميد سنة 1901 أمرا بإنشاء مدرسة طبية تركية اللغة .

معالجة مرضاهم وإجراء عمليات جراحية لهم بحيث يتوصلون الى درجات شتى من التئوم وذلك بتعليق زجاجة لامعة امام المريض فينما بينها المبخار ترسل روائح العطر والعود (3) .

وكثيرا ما تستعمل اعضاء بعض الحيوانات لمعالجة الامراض وقد اشار الشيخ عبد الرزاق صاحب كشف الرموز الى خواص بعض اعضاء الحيوانات منها معالجة داء الكلب بميثقال - غرام - من كلية الكلب العتور بمجرد قتله، ونشر بنسيون بحثا حول الطب والاطباء بالمغرب قبل الحماية في مجلة المغرب الطبي سنة 1951 ذكر فيه ان المصاب بالحصبة كان يوضع في غرفة يكسى فراشها وجدرانها واغطيها بلون احمر .

وكان الجدي يظهر كل سبع سنوات تقريبا ويعمد بعض الناس الى التلقيح ضد الجدي بمسادة تستخرج من بثور ودامل العجل والناقطة .

وكان الجذام منتشر بالمرغرب وكانت بفاس حارة الجذمي ثم نقلت الى الكهوف بعيدا عن المدينة وقد شاهد الدكتور مارسييت عام 1885 ان سكان هذه الحارات كانوا كلهم اصحاء ويسكن الحارة ما يقرب من ثلاثمائة شخص وفيها مسجد وسجن وسوق واهلها يتاجرون ويزرعون ولم يكن يسمح لغير المجذومين بالدخول الى الحارات الا اهل مراکش .

وكثيرا ما كانت تتعرض بلاد المغرب لجائحات الكوليرا والتيفوس ويذكر ان الطاعون افتقد طنجة سنة 1818 خمس سكانها واما الكوليرا فظهرت في المغرب لأول مرة عام 1834 ماتخذت المحاجر الصحية للوقاية منها وكانت توجد في جميع مدن المغرب لجنة صحية ومن ممثليها المحتسب .

وكان في كل بلد عدد من المتطبين وقد ظل الامر كذلك الى ان فتحت كلية قصر العيني الطبية ابوابها فأرسل عبد السلام العلمي للدراسة فيها وقد وضع فيها كتابا سماه «ضياء النبراس» اورد فيه أساتذته بالقصر العيني الذي أسسه عام 1827 الدكتور كلوط بأمر من الخديوي محمد علي وقد وضع ايضا تصنيفا مختصرا لشرح تذكرة الانطاكي سماه ضياء النبراس

يعتمد على تجارب المعاجز والحجامة والفضادة وجبر الاعضاء المكسورة ومع ذلك فقد كان دوليل قنصل ملك فرنسا هنري الرابع طبيبا في البلاط المغربي سنة 1606 . اما الاطباء المغاربة فكانوا تليين مع ان الاوبئة غير قليلة ومنها الطاعون وكان يظهر وبأوه مرة في كل عشر سنين او خمس وعشرين سنة . اما الامراض المنتشرة فكان منها الداء الامرنجسي الذي نقله المهاجرون اليهود (1) من الاندلس الى المغرب بعد سنة 1492 ويروي ان عشر السكان كانوا مصابين به وكانت لاسم المرض مرادفات منها مرض الدنيا او المرض الكبير او مرض النساء . وكان من بين الامراض الشائعة داء المفاصل وتضخم الغدة الدرقية والقرع والجرب والجذام وكان المتطبيون يعتمدون على كتاب داود الانطاكي «التذكرة والنزهة» وكانت لبعضهم بعض المهارة في الجراحة الصغرى وكانوا يستعملون في تصيد القروح الزيت الغليان واططران الساخن او الحناء والفحم وصمغ الصنوبر وكانوا يرقون النزف بمساحيق مستحقة من القرع الصغير - يقطين - ودقيق الفول فاذا اعياهم الامر خاطوا حافتي الجرح في شكل منحرف وكان النمل يستعمل بدلا من الخياطة فيسلط على حافتي الجرح ويقطع صدره فيبقى فكاه عالقتين وبها تتم الخياطة .

وكانت تتلق الاسنان الموسسة بأدوات خاصة وتداوى امراض الاذن بالجاوي والزعفران والزيت ، اما العيون فكان للكحالين اساليب منيدة في معالجة امراضها وخاصة الرمد منها وكانوا يزيلون غشاوة العين المانعة من الابصار بحذق زائد ، بل وكانوا يتقنون عمليات اصعب من هذه .

وذكر كودار في وصف المغرب وتاريخه (2) ان الكي اعظم دواء للجراحات بالمغرب والجزائر وان ذلك قد يسفر عن نتائج عجيبة فقد اجريت لجرحى عرب اراد جراحو فرنسيون قطع اطرافهم المجروحة فعولجوا بنجاح الكي بواسطة حديدة محماة .

اما في التبنيج فكان الاطباء المغاربة يستعملون السيكران وهو عشب مخدر وذكر الدكتور ميكريز في كتابه الاخبار الصادر عام 1859 بالجزائر ان الاطباء المغاربة كانوا يستخدمون وسائل الايحساء والتئوم في

(1) راجع كودار في تاريخه ص 461 (نقلا عن كتاب «الطب والاطباء بالمغرب» للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله) .

(2) راجع كودار في تاريخه ج 1 - 238 .

(3) رينو ص 131 . (نقلا عن كتاب الطب والاطباء) .

في حل مفردات الانطاكي بلغة فاس فطبع فيها سنة
1318 هـ - 1900 م .

ولقد اشار رينو الى اجتماع عقده اربعة من
علماء فاس في 8 شوال سنة 1310 هـ - 1892 م
لامتحان طبيب مغربي فشهدوا له بذلك بعد اطلاعهم
على تضلعه في الطب وقوانينه .

وقد عاش بالمغرب في المعهد العلوي اطباء اجانب
كما أسست بعثات التبشير منها الفرنسيين
مستشفى بفاس ومصحات في طنجة وذلك بين 1727
و 1794 وأسست الارشاليات البروتستانية أيضا في
أواسط القرن التاسع عشر مستشفيات بالمغرب

هذا وأرى من واجبي أخيرا ان أبين ان اما اثبت
على ذكره قد لا يكون وانما بتمام المقصود ولكنه يؤلف
في كل حال محطة انطلاق لبحوث أعم ، ودراسات أتم
لذلك عنونته بالنظرات كما سبق ان ذكرت ، اعترافا
مني بما يكون فيه من نقائص وهنوات راجيا من كل
قارئ لهذه الدراسة ان يعتبر نفسه مساهما
في وضعها ومشاركها فيها بارشاده ايبي الى
مكامن الخطيئات وبيان صحتها . انه ان قام بذلك
اسدى لي وللتاريخ خدمة مشكورة وقدم حسنة مبرورة
فيتحول بذلك من ناقد كاشف للعيوب الى متمم
للنقائص في بلوغ الهدف المطلوب والسلام .

